تربية الذوق

خطاب للسيدة لبيبه هاشم

تابع صفحة ٦٥

ان تربية الذوق ترفع قدر المرء وتلطف اخلاقه ، تدفعه الى اتقان اعماله ، تساعده على تضيد الفاظه ، تجعله يدرك قدر الاعمال العظيمة فيميل الى الاقتداء باصحابها . وعلى الجملة فهي تساعده على اقتباس كل صفات حسنة واحترام كل عمل جليل

بل ان تربية الذوق هي اصل سعادة الانسان . لانه على قدر حسن ذوقه تكون قوة تمييزه للاشياء ومعرفته لاوجه الشبه والعلاقات بينها . ولا بدع فان الذوق هو القوى العاقلة التي تتأثر من الشيء الجميل فاذا لم تتهذب هذه القوى لبثت ضعيفة قليلة النمو وكان صاحبها اشبه بآلة تتحرك ميكانيكياً دون ان يتقن عملاً من الاعمال او يبرع بفنٍ من الفنون اذ انى له ذلك وهو لا يدرك الفرق الكائن في درجات الجمال واذا فعل فادراكه يكون ضعيفاً بالنسبة الى غيره من اصحاب الذوق السليم و يتضح لنا ذلك متى اوقفنا اثنين لدى صورة متقنة الصنع وكان احدهما مصوراً بارعاً والاخر بسيطاً جاهلاً فترى البسيط يستحسن الصورة استحساناً سطحياً حتى لو لم تكن تستحق الاستحسان فيكفيه ما يراه فيها من تزويق الوان وبرقشة ظواهر وقد تكون هذه حاله لدى احكم الصور عملاً واحقرها صنعاً لافرق عنده بين هذه وتلك ولا افضلية في احدهما . في حين اننا نرى المصور يتأثر من حسن اتقانها تاثراً يتناول كل عواطفه واذا كان فيها ما يدعو الى الانتقاد ادرك ذلك بلمحة وبين مكان الخطأ فيها وبهذا يتضاعف سروره وتاثره

فما هو السرّ في ذلك وما هو السبب في الفرق الكائن بين المصور والجاهل .

الفرق هو ان الاول نال حظاً من تربية الذوق لم ينله الثاني فكان ما رأيناه من تباين شعورهما لدى الصورة

ومعلوم ان الناس مختلفون ابداً في اذواقهم اختلافهم باميالهم ودرجة افهامهم حتى سار القول مثلاً بان «لا جدل في الذوق

وليس الغرض من التربية ازالة هذا الخلاف وانما القصد انماء القوى العاقلة حتى تصير قادرة على ادراك اسرار الجمال والتمييز بين درجاته . وبذلك ترتفع منزلة الانسان الروحية وتصبح غايته من الحياة عظيمة سامية ارفع من ان تقنعها الماديات او ترضيها الدنيويات

ان الغاية القصوى التي يسعى اليها المرء في دنياه هي السعادة بلا ريب وهذه لا يمكن ان ينالها الجاهل بجهله او الغني بثروته او البطل بقوته او التقي بصلاته . فتلك امور وان اسعفت الانسان ببعض الفائدة فلن تجعله وحدها سعيداً وانما السعادة الحقيقية هي التنعم بملذات العقل . ولا يسع العقل ادراك هذه الملذات الا اذا تهذبت فيه حاسة الذوق

ألا ترى كيف ان الشاعر متى اجاد نظم قصيدة يقف عند نهايتها ناظراً في سطورها متأملاً معانيها بسرور يلامس روحه ويستولي على كل عواطفه ومثله الكاتب متى عني بتدبيج مقالة رنانة محكمة السبك وكذلك المصور والنقاش متى ابدع كليهما في صنع رسم او تمثال . وقس على هؤلاء النجار والبناء وغيرهم فان كل من عمل عملاً واتقنه شعر بان عقله يترنم تمثلاً بخمرة الفوز وروحه تطير في جوّ السرور والاعجاب

اما من لم يتهذب ذوقه فقد حرم طبعاً من هذه اللذة الروحية بل السعادة التامة وكان شبيهاً بالحيوانات التي تعيش لتحمل الاثقال وتملأ جوفها باصناف المآكل

وافضل الوسائل لتربية الذوق هي الموسيقى والتصوير فالاولى ترفع النفس الى اسمى مراقي الكمال واللطف وتلبسها اجمل حلل الرقة والحنان فتنمي فيها عواطف الحب والشفقة وتميل بها اصغاء لصوت البائس وزفرة اليائس . والثانية تنمي في المرء قوة التصور وحسن التمييز وتساعده على ادراك قدر المحسوسات وكيفية نظامها . ومن دواعي الاسف ان هذين الفنين منحطان جداً في الشرق كما هي الحال في سائر الفنون الجميلة وتلك هي اكبر اسباب تاخرنا في ميدان الرقي . اما في الغرب حيث الحال على عكس ما هي عندنا فان شعوبه ينافس بعضهم بعضاً بالاختراعات الصناعية والاكتشافات العلمية فضلاً عما يتحلى به افرادهم من اللباقة والظرف وما يشبون عليه من المباديء المتقاربة الاصول المتشابهة العادات بحيث يجد كل منهم ارتياحاً للوسط الذي هو فيه وسروراً من معاشرة اي كان من ابناء جنسه اما عندنا فالقوم خليط بعاداته متباين بامياله مختلف بمعارفه حتى نكاد لا نجد اثنين ان لم اقل اخوين على اتفاق في مبدأ او رأي . وما ذلك الا لعدم وجود اساس نشيد عليه دعائم حياتنا الادبية او قاعدة نجري عليها في ادابنا الاجتماعية

يصحب الغربي ابنه الى حيث توجد الآثار القديمة مثلاً فيبدي له من عظمتها السالفة وقدر اصحابها الغابرين بما يملأ قلبه الصغير احتراماً وتعظيماً . ويقف به لدى بعض تماثيل الرجال العظام فينقل اليه من اخبار مجدهم وسالف عزهم ما يجعله يرفع رأسه افتخاراً واعجاباً وهكذا يدرك شيئاً فشيئاً قيمة تلك الاثار ويندفع يوماً فيوماً لاقتفاء اثر اصحابها

اما نحن فاذا اتفق لنا ان نمرّ بقرب الارز او قلعة بعلبك او اثار تدمر فاكثرنا يكتفي بالقاء نظرة بسيطة قد لا تشمل سائر موجوداتها ومظاهرها

وقلَّ منا من يهتم لمعرفة تاريخها او يشرح لولده شيئاً عنها

فالولد الذي يشب على هذه الحال يظل كل عمره بليداً مغتراً بنفسه يجهل فضل الرجال ولا يعرف قيمة الجميل من الاعمال وقد يعتقد ان الدنيا قائمة بمحل وجوده والعالم محصور بذاته الكريمة لا يرى المعارف الاَّ ما يجمعه ضمن دائرة عقله الضيق ولا من يستحق الاهتمام والاحترام الا شخصه العظيم

يعلم الغربي ولده مبادىء الدين بان يستلفت نظره الى جمال الطبيعة ونظام الكون فينتقل بافكاره الى اعالي الجبال حيث يريه هندسة تركيبها وانواع صخورها. ويهبط به الى اسفل الوهاد فيشرح له كيفية تكوينها وتحجر اخشابها. ثم يجول واياه مع السيارات وحول الشمس وبين النجوم فيشرح له عن دقة نظامها وغرابة ترتيبها وشكل حركاتها وجمال منظرها حتى اذا امتلأ دماغهُ الصغير احتراماً لكيانها وهيبة لعظمتها واعجاباً بترتيبها . افهمهُ حينئذ انه يوجد من هو اسمى منهـا كثيراً الا وهي القوة التي اوجدتها : الاله الخالق : بهذه الوسيلة يمتلئ الولد احتراماً لله ومعرفة لعظمته فيخرُّ ساجداً من تلقاء نفسه ويطأطئ الرأس احتراماً لذلك الخالق القوي

اما نحن فنبدأ بتعاليمنا الدينية بعبارات نرددها على مسمع الولد الى ان ترسخ في ذهنه فيكررها دون ان يفهمها او يخطر له تفهم معناها وننتهي بمواعظ وارشادات تفتل عقل الولد بعويص الفاظها وتعقيد معانيها

وهكذا ترون ايها السادة ان ابناء الشرق محرومون من مثل هذه الوسائل سواء في البيت والبستان او في المدرسة والسوق لا مربي لاذواقهم ولا مرشد ولا معلم وما نبغ بعض رجال ونساء فيهم الا بجدهم واجتهادهم و كثرة مطالعتهم وانصبابهم على توفير معارفهم والعمل على تثقيف عقولهم وتحسين صفاتهم